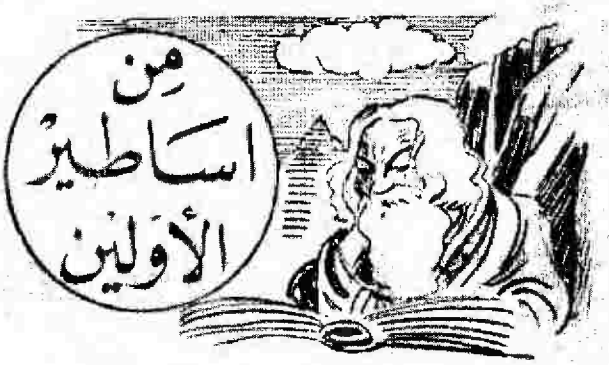

الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

[تابع ما نشر في العدد الماضي]

وانثال الحنان في فم ميرفا ، إذ هي تجيب الفتى المحزون :

« ويح لك أيها الفتى ! رحمتا لك يا بني الصغير ! أواه ! لو أن أباك هنا اليوم ليذود أولئك اللئام كيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلاعب رمحه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له

لسهاماً مسمومة مسمومة سقاها أبي بمد إذ رفض أن يسقيها إيلوس بن مرمريس[1] ... وهو لو صوبها إلى أولئك المفاليك لأبادهم ... يا رحمتا له ! إن أحداً غير — الآلهة — لا يعلم إن كان ما يزال حياً يرزق أو هو قد ابتلعه اليمّ أو عاجلته المنون ... تلمّاك ! يا ابن أعز الناس عليّ ! إصغ لي وع الذي أقول : إنك لست طفلاً بعد ! فلم لا تشعر عن

(١) أورد هنا هوميروس أسطورة لا داعي لذكرها

لكم بمروجها ونباتها أماً بارة بالعاملين تغني لهم وهي تجر برود الأنوار في الصباح . في تلك الأزمنة سيكلل العرق جبينكم بالفرح والحبور ، وإذ تسرحون أنظاركم على الآفاق الواسعة ، فانكم لن تجدوا في حقول الانسانية إلا السنابل تتماوج متساوية قد رصعتها الأزهار

في ذلك الحين ، عند ما ترفعون رؤوسكم لتؤدوا الشكر لله ، أيها الأحرار ، لأنه أوجدكم في عصر الحصاد. افتكروا فينا نحن الراحلين وتذكروا أن ما تتمتعون به من عناء وسلام قد كلفنا كثيراً من الشقاء

ترحموا علينا أكثر مما تترحمون على سائر من تقدموكم في مراحل الأجيال ، لأننا تحملنا أوجاع أجدادكم دون أن نتمتع بما كان لهم من عزاء ...

فيكتس فارس

ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك ! لم ترضى أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك فى أمر أمك ؟ ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن شاءوا ؟ أليس أبوها أليق لهذا الشأن من كل رجل سواه مادام أوديسيوس لم يؤب ؟ لِمَ يربضون هنا كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك ؟ إستمع لما أقول يا تليماك : نبيء القوم فليجتمعوا لك ، ولتسمعهم كلمتك ، ولتصارح أمك إن هى أرادت منهم بعلاً فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد . ثم انهض أنت يا ابن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعد ما استطعت من سفين وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بركة الآلهة ، فلتذهب أولاً إلى (پلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور ، ثم إلى إسپارطة حيث صاحب هذه الداهية منلايوس[1] ... أقلع بفلكك إلى هذين فسائلهما أين مضى أبوك فقد تقع منهما له على خبر ... ولتكن لك أسوة فى الفتى الجرىء المقدام أورست الذى قتل قاتل أبيه[2] ، وفيهم أمه ... بوركت يا أورست !! بوركت يا أورست ! هلم يا تليماك فقد تعود بأبيك حياً فيرد الشرف والمجد إلى هذا البيت ؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره ، وتقيم قبره ، وتخلد فى العالمين أثره ! ! والآن ، فلأنهض أنا إلى رجالى وسفنى . لقد بعدت طويلاً عنهم ... وكلى يقين يا بنى أن تقدر نصيحتى وعلى الآلهة فلتتكل ! »

وحين انتهت ميرقا من هذا الحديث ، حدجها تليماك وقال : « أيها الصديق حباً ، ويا أبر الأوفياء سمعاً ! لقد أيقظت فىّ ضميراً أنت أحييته . فألف شكران لك ... أبداً لن أنسى كلمتك : أنا ابن أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس » وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه هدية سنية تكون تذكار هذا اللقاء ، ولكن ميرقا شكرته وأبت أن تأخذ شيئاً « فاذا نجحت فى مسعاك يا بنى فسوف أعود وسوف أقبل أية هدية منك ! »

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين . ولشد ماذهل الفتى ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير (منتس) ينتفض انتفاضة هائلة فيكون نسراً فخماً يضرب الهواء بجناحيه ثم يعلو ويعلو ... فيكون فى السماء ويغيب عن ناظريه ! !

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات الملحة على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ، وجدد الثقة عنده وأكدها فيه يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذى أرسل جناحيه وغاب فى السماء

وانطلق تليماك حيث جلس الفسّاق يستمعون إلى أغانى فيميوس ، وحيث وجد أمه فى الشرفة العليا تستمع هى الأخرى إلى تلك الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكى ... وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير ذكريات شجوها وشجنها ... وتثور النخوة فى قلب الفتى فيصيح بأمه : « علام العويل يا أماه ؟

(١) زوج هيلين أخت پلوب والتى كانت سبب حرب طروادة

(٢) أجا ممنون

وماوقوفك هذا الموقف تسترقين الغناء ؟ وماعتراضك على الغنى ؟ دعيه يتغنى ما يشاء ، فلقد غدونا سخرية القضاء وهُزُوَ المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت ، وإنى لصاحبها بعده ... فادخلى ولبدخل معك قيانك ولتقمن جميعاً بشؤون المنزل ، ولْتَخلِنَّ إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ما عدا ذلك للرجال ... لى ... لى أنا وحدى : سيد هذا القصر ! »

وأثرت مقالة الابن فى نفس أمه ، فانثنت مع قيانها إلى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تليماك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها الفسّاق ! ياعشاق أبى ! خذوا فى لهوكم ، وتمتعوا قليلاً أو كثيراً ، فاذا كان الغد فاجتمعوا فى الساحة الكبرى ، فان لى كلاماً منكم ... سأطلب اليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ؛ أتسمعون ؟ لقد طالما أتلفتم لنا زادا وعتاداً ... ألا فالتمسوا الزاد والعتاد من عند أنفسكم ؛ ولتقيموا أفراحكم وولائمكم فى غير هذا المكان ؛ فان أبيتم فانى مستعين بالآلهة عليكم ، ولتقتص منكم السماء بما جرحتم ... »

وما كاد يفرغ من قالته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذى لم يعتادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال : « تليماخوس ! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن ... يالشؤم اليوم الذى تتوجك السماء ملكا فيه على إيثاكا ... عرش آبائك وأجدادك ! »

ويجيب تليماك : « ليس أحب إلى من الملك حين تخلعه علىّ السماء ... غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس ... أما أنا ... فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر ... ولا غرو ... فان هذا من حقى ! »

وأجابه يوريماخوس : « إن من حقك أن تقول ما تشاء يا أخانا تليماخوس ... أما ملك إيثاكا فالسماء وحدها تؤتيه من تشاء . ولكن قل لنا برب من هذا الضيف الذى كان معك الساعة ؟ هل من قبل أبيك أقبل ؟ أم إن له عليكم لدَيْنا ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولكننا لمحناه من بعد ، عليه سيماء النجابة والجلال . من أين أقبل يا تليماخوس وفيم قدم ؟ ... »

وأصلح تليماك من شأنه وقال : « أيها السيد يوريماخوس : إن يقينى أن أبى قد انتهى ... وان تغريبى هذه الكلمات المعسولة التى يتشدق بها المنجمون ... أما هذا الضيف ... فهو من أصدقاء أبى طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير التجارين وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان ، الملك الشجاع أنخيالوس . »

فلما تليماخوس وهو أعرف الناس بضيفه ؟ ثم انثنى كل إلى مخيمه ، وانثنى تليماك إلى مخدعه بالطابق العلوى . حيث كانت مرضعه يوريكليا تنتظره ، وتوقد له الشموع والسُّرج . يا لها من أنثى طيبة تحلص لولاها وتحنو عليه ... لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ! ... ولسرعان ما هيأت له فراشه الوثير ...

وقضى تليماك ليلة نابغية ممتلئة بالهواجس والأفكار

تليماك يجادل العشاق

ويبحر باحثاً عن أبيه

خلاصة ما تقدم

« بعد سقوط طروادة عاد كل أبطال الأغريق الى أوطانهم ما عدا البطل العظيم أوديسيوس الذى ضل طريقه فى البحر وظل سنين طويلة يخبط فى اليم على غير هدى وكانت زوجته پنلوب أخت هيلين من أجمل الفاتنات اليونانيات فطمع أمراء البلاد المتاخمة فى الزواج منها ، ولكنها رفضتهم جميعاً ثم لجأت الى الحيلة معهم حينما لجأوا هم الى المطرسة وأقبلوا يفاوضونها ويفاوضونهم ، فعسكروا فى حدائق قصر أوديسيوس وراودها ليضطروها أن تختار منهم زوجاً لها . ذلك أنها اصطنعت لنفسها منسجاً وراحت تعمل عليه ووعدتهم أنها حين تفرغ من نسجها فانها ستختار منهم بعلا لها . ولكن هذه الحيل لم ترض ميرڤا ربة الحكمة والنصيرة أوديسيوس . فسألت أباها كبير الآلهة أن يساعد هذا البطل وأن يأذن فيأمر بعودته الى وطنه . وكان أوديسيوس فى هذه الأونة عند عروس الماء كالبسو التى أغرمت به وافتتنت بفوته فأبقته لديها وراحت تراوده عن نفسه ؛ فأرسل كبير الآلهة ولده هرمز الى هذه العروس يأمرها باعداد سفينة يبحر البطل عليها الى بلاده — أما ميرڤا فانها ذهبت بنفسها الى تليماك ابن أوديسيوس — فى صورة أمير من أمراء البحر يدعى منتس ، وهناك أكلت مع الفتى ثم حرضته على طرد العشاق المجرمين من قصر أبيه ، وبعد أن فرغت من حديثها معه حولت نفسها الى نسر عظيم وضربت الهواء بجناحيها وغابت فى السماء ، فأدرك الفتى أن الذى كان يكلمه ليس أمير البحر منتس ، ولكنه إله عظيم أقبل ليمد له يد المساعدة فى البحث عن أبيه — وقد خطب تليماك العشاق فطلب إليهم أن يجتمعوا فى الغد فى الردهة الكبرى ليطلب منهم أن يغادروا القصر وأن يذهبوا الى جده فيخطبوا إليه ابنه پنلوب إن أرادوا ، ثم ذهب ليستريح فى مخدعه الى الصباح »

موّهت أوروا[1] ، ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقده ، وأصلح

(١) ربة الفجر فى الميثولوجية اليونانية وإحدى تابعات أبوللو وهادية عربته — الشمس — عند ما تبزغ من أبواب المشرق

ميرڤا

من شأنه ، وتقلد سيفه[1] ، ثم انفتل مختالاً ، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل يقلب عينيه فى هذه الخيام المضروبة التى تملأ حديقة القصر ، والتى يثوى فيها أولئك الفجار الاشرار عشاق پنلوب ؛ وتلبث قليلا وفى القلب لظى ، وفى النفس كارم ؛ ثم صاح باللأ فهبوا مسرعين ، وأخذوا يتسللون الى الردهة الكبرى ، حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه ، وفى يمينه رمح ظامئ الى تلك الدماء النجسة التى تتدفق فى عروق الذئاب ، وعن جانبيه كلباه الضاريان يتهديان وفى عينى كل منهما جمرتان . وكانت ميرڤا نفسها تضفى على الشاب سيماء النبل ، وترفرف فوق ناصيته أمواهاً من العظمة والمجد ، لتقذف منه

(١) فى الأصل (صفيحته) وهى السيف العريض القصير Fauchion

الرعب فى قلوب أعدائه ، حتى ليهرهم أن يروا فى تليماك ذاك الضرغامة المختال

وما كاد الفتى يستوى على عرش آبائه الصيد ، وأجداده الصناديد ، حتى نهض شيخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال ، وتشتمل فى رأسه شيبة التجاريب وجلائل الفعال . وكان هو إيجيتوس بعينه . . . إيجيتوس المسكين الذى بعث بولده أنتيفوس فى أسطول عظيم وجند لجب ، ليشارك فى حرب إليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكر وفر ، وجال وصال ، وصمد وانتصر . . . ولكنه . . وا أسفاه ! . . لم يعد إلى أوطانه فى العائدين ، بل صحب أوديسيوس فى رحلته المشئومة وراء البحار حيث أكله السيكلوپ الوحش فيمن أكل [1] . وقف إيجيتوس بين أبناء له ثلاثة ، أحدهم من عشاق پنلوپ ، ثم قال :

« أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ بارح أوديسيوس بفلذات أكبادنا نُدعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع . فمنذ الذى دعا إليه ، وماذا يبتغى : أنفحة من نفحات الشباب ، أم زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا الهالك يبشر بعودٍ أحمد ؟ لينهض بارك الله فيحدثنا عما دعانا اليه »

وتناول تليماك صولجانه من قواعه ، وتقدم حتى كان فى وسط القوم ، وجهر فقال :

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة ! أنا . . . تليماخوس بن أوديسيوس ، صاحب هذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل . . . لقد دعوتكم لأشكوَ إليكم بثى وحزنى . . . لا لأزف إليكم بُشريات الجيش المفقود الذى لا يعلم مصائره ! لا تربوس ! لقد فقدت والدى ، ووالله الأيثاكيين جميعا ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلاء العشاق [2] الذين يطعمون فى الزواج من أمى ، غير متقين فى عرضى إلا ، ولا راعين لأبى ذمة ، يُذَبحون النَّعم [3] ، ويربغون [4] الزاد ، ويعاقرون ابنة العنب ، ولا يبالون أن يَهلك الزرع والضرع ، ما داموا يبيتون ويطونهم ملآى ، ويبيت غيرهم على الطَّوى . . . ! لقد استباحوا هنا كل شىء ، ما دام لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لى فأغل إيديهم ، ولا ضمائر فيصيخوا إلى قولى ، ويرحموا ضعفى ، ويذهبوا من فورهم إلى جدى فيخطبوا اليه ابنته إن أرادت أحدهم بعلا ، فهو بها أولى وبشأنها أحق . . . إنكم ضعفاء أيها الايثاكيون الأوفياء . . . ولو استطعتم لرددتم عنى غائلتهم . . . فلقد طفح الكيل ، وحزب الشر ، وعم الأذى . . . والآن ، أوجه إليهم قولى . . ، ولن أستحى أن أصارحكم مرة أخرى أيها العشاق . . . اخجلوا إذن ! ولتصبغ الفضيلةُ وجناتكم بحمرة الحياء ! أذكروا ما عسى أن يُعيّركم به جيرانكم : واخشوا قارعة تحل عليكم من أربابكم . . . واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلتفتكم الصواعق . . . يا قوم ! أستحلفكم بسيد الأولمب ! بربة العدالة ثيميس ، إلا ما تركتمونى أقفى البقية الباقية من أيامى فى شقوتى وحدى ! هل أجرم أبى مرة مع أحد منكم فأنتم اليوم تأخذوننى بجريرته ؟

(١) سيأتى ذكر ذلك فى الكتاب التاسع

(١) يلاحظ القارئ أن الاجتماع كان عاما ولم يكن قاصراً على العشاق فقط ، بل ضم جمهوراً من أهل إيثاكا كذلك

(٢) الحاشية

(٣) يذبحون

فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تذهبون بثروتى أبادید ؟ وفيم إذن تستنزفون آخر قطرة من خمرى دون مقابل ؟ ! إذهبوا ! إذهبوا ، ودعوا تليماخوس البائس تحز فى نفسه أشجانه ، وتبرى اصطباره بلواه ! ! »

ودق الأرض بصولجانه ، وانفجر يبكى ، وكأنما انهمرت دموعه فى نفوس القوم ، فوجموا وجوماً شديداً ، ولم يئبس أحدهم ببنت شفة . حتى نهض أنتينوس آخر الأمر فقال :

« لله بيانك يا تليماخوس ! لقد كنت مصقعاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبد الحقيقة حين قصرت علينا كل اللوم ، حين لا ملوم إلا أمك ! لقد خدعتنا جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعة ، إذ رسائلها تترى علينا ، تحيى فى نفوسنا الآمال ، وتذكى فينا الأمانى : لقد كانت وعودها تترادف كالبروق الخُلَّب ، وتترامى كالسراب المضل ! لقد نخذت لها منسجاً وطفقت تعمل عليه وهى تغرينا ، وتقول : « أيها الاغريق : لقد قضى أوديسيوس ما فى ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ، ولكن أبا ليرتيس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى وئيدة إلى حافة القبر ، أفليس أخلق بى وبكم أن ننتظروا حتى أنسج له هذا الثوب ، لتكون منه أكفانه ، وحتى لا أكون مضغة فى فم الاغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاته » . ولقد أجبنا سؤلها وتلبثنا طويلاً ، ترجو لو تفرغ من نسج هذا الكفن ، بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار ، وهكذا دواليك ، ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثتنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهى تنقض غزلها أنكاثاً فى ضوء المشاعل ، فى جنح الليل ، وأجبرناها على إتمامه بالرغم منها ... هذه هى الحقيقة يا قوم ! والآن : فلترسل أمك أيها الفتى إلى أبيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ، أو فلتختر هى لها بعلا ... أما إذا عكفت على ختلها بنا ، فلتثق أن شيئاً منه لم يعد يجوز علينا ، مهما ظنت أنها أحذق من تعرو ، أو أكيس من الكمينا ، أو أبرع من ميدينية[1] ... حسبها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك يا تليماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوت ، من ذبح لنعمك ، وإراغة لزادك ، ومعاقرة لخمرك ، حتى تختار لنفسها ؛ أو ... فليتم فزع هذه الدار ، ولينضب معين خيرها . »

وشاعت الكبرياء فى كل جارحة من جوارح تليماخوس فقال :

« أنتينوس ! ماذا أصابك ؟! كيف تسألنى أن أقهر أمى التى غذتنى ونشأتنى على غير ما ترضاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلها الذى لا يعلم غير الله إن كان حياً أو ميتاً ؟ لبئس ما أجزيها به ، ولشد ما أغضب أبى وأثير غضب الآلهة على إن فعلته ! ! إنها ستدعو إيرينس[2] كى تنتقم لها منى ، وستنصب على لعنات الناس جميعاً ! ! ويحك أيها الرجل ! لن أفعلها أبداً ... بل اذهبوا أنتم فعلوها ما شئتم ؛ فاما أجبت طلبتكم ، وإلا فانصرفوا غير مأجورين ... اذهبوا ... فأولوا ولائمكم فى غير هذا القصر ، وأربعوا من زادكم ، وأنفقوا مما تحبون ! ! أما إن رأيتم أنه أحلى لكم أن تأكلوا مال غيركم ، فانى سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتص لى منكم ، فهى محيطة بكم ! ... »

(يتبع)

دريني خشبة

(١) من ربات الفنون